بسمى او ادب القديمة

Adab ou la vieille Bismâ.

١ — مدخل البحث

في عام ١٨٢٠ اي منذ اكثر من قرن شرعت انكلترة وفرنسة ثم عقبتهما اميركة والمانية في ارتياد ديار بابل واشور ونبش مدنها المدفونة وكانت نتيجة اقدام هذه الدول ومجازفتها باموالها ومخاطرة علمائها بحياتهم ملء دور التحف في اوربة واميركة بآثار هذه البلاد وعتائقها وركازها فان الجهود التي بذلها كل من لايرد وسمث في نينوى وبلامن في خرسباباذ (خورسباد) ودي سرزك في تلو ورتش وروولنسن ورسام وكلدواي في بابل وكبل وورلي في اور ووارد وبترس وهينس وهلبرخت في نفر ، وبنكس في بسمى (ادب) ، ولفتس في الوركاء وسنكرة وتل سفر ، وتيلر في اوريدو (ابو شهرين) اثمرت ثمارا لذيذة جناها عارفو قدرها .

٢ — البعثات الاميركية

الى ديار العراق قبل الحرب العظمى

سارت البعثات البابلية على نفقة الولايات المتحدة من ربوع العالم الجديد والقت عصا ترحالها في وادي الفراتين فتكللت مشاريعها بالنجاح وكانت البعثة البابلية على نفقة جامعة شيكاغو الثالثة من نوعها فقد غادرت ربوع اميركة وحلت في القطر العراقي وقامت بتحريات وتنقيبات دقيقة فاقت من تقدمها في هذا المضمار . واول بعثة نزحت من العالم الجديد ويممت ديار العراق كانت بايعاز الانسة كاترينة د . وولف Miss Catherine D. Wolfe فقد امدتها باموالها وجهزتها بكل ما يلزمها من وسائل النجاح وكانت تلك الفادة من بنات نيويرك العاملات في اكتشاف دفائن الكنوز الاثرية والوقوف على محتوياتها . وقد ترأس تلك البعثة واشرف عليها الدكتور وليم هيس وارد Dr. William Hayes Ward فقضى عام ١٨٨٤ـ ١٨٨٥ في تفقد اطلال بابل والبحث عن انقاضها وقد اتاح له الحظ ان يبتاع مقدارا وافرا من الرقم المسمارية والختوم المحفورة .

هذا ولو ان بعثة وولف لم تجر تنقيبات ولم تحاول الحفر في بعض المدن القديمة إلّا انها مهدت الطريق لجامعة بنسلفانية الشهيرة في اطلال نفر ودرست اساليب النبش بصورة علمية فنية فامدتها بانباء سهلت عليها الشروع في العمل .

استمرت البعثتان الاولبان في الحفر والتنقيب مدة ثلاث سنوات أي من سنة ١٨٨٨ الى ١٨٩١ باشراف الدكتور جون ب . بترس Dr. John P. Peters وقد وصف هذا النقابة وصفا دقيقا كل ماقام به من الاعمال في كتابه المسمى نفر Nippur ثم استؤنف الحفر في البعثة الثالثة ودام نحو ثلاث سنوات اخرى اي من عام ١٨٩٣ الى ١٨٩٦ برئاسة ومشاركة الدكتور ج . ه هينس Dr. J. H. Haynes اما البعثة الرابعة فترأسها بصورة رسمية الدكتور ه . ڤ . هلبرخت Dr. H. V. Hilprecht بيد ان التنقيب ظل في عهدة الدكتور هينس فاسفر عن اكتشاف عظيم من صفائح الاجر وقد استدل علماء الاثار من تلك الكنوز الادبية على كل احتساب تاريخ بابل تقريبا وسظم تلك الرقم محفوظة اليوم في متحفة جامعة بنسلفانية .

ان البعثة الثالثة كانت فكرة فكرها في بادئ الامر الدكتور ادجر بنكس Dr. Edgar Banks الذي غادر مرسيلية في تموز من سنة ١٨٩٨ قاصدا خليج فارس فنفر البصرة وقد دام سفره نحو عشرين يوما عانى في اثنائها من شدة الحر ومشقة التنقل من بلد الى آخر مالا يوصف وقضى ماعدا ذلك عشرة ايام في المسير الصحي في البصرة لانه كان قد فشا في تلك السنة داء البيضة في العراق وبعد ذلك تسنى له القدوم الى مدينتنا التي سماها بغداد المجيدة في فصل عقده في كتابه « بسمايا او ادب المفقودة » وقبل ان يشرع في عمله الذي قدم من اجله في العراق قام في طريقه عراقيل جمة حالت دون البلوغ الى امنيته وقد نشأت تلك العراقيل من القانون الذي نشر في تركية عام ١٨٨٧ وهذا القانون كان قد اقتبس من قانون الاثار العتيقة في بلاد اليونانيين وورد فيه منع استخراج الاثار من بطون الاطلال المبثة في اطراف البلاد القديمة فذهبت اتعابه ادراج الرياح في محاولته اقناع والي بغداد ليسمح له بالشروع في العمل واضطر اخيرا ان يقفل راجعا في تلك السنة نفسها الى نيويرك في باخرة كان حملها التمر البصري

بعد سفر طال مدة ٤٢ يوما .

وفي صيف عام ١٨٩٩ تألفت لجنة باسم بعثة اور انتخب لها رئيسا و . ر هربر H. R. Harper من جامعة شيكاغو ومن اعضائها الرئيس هنري مورتن Henry Morton من معهد استيفنس العلمي والمطران بوتر Bishop Potter و س . ن . بلس C. N. Bliss و و . اي . دودج W. E. Dodge وايسيدور ستروس Isidor Straws وغيرهم من اساطين علم الآثار من الاميركيين ومنهم الدكتوران بترس و وارد وقد عهدت مشارفة تلك البعثة الى الدكتور ادجر جمس بنكس وتعين المستر جورج فوستر M. Jeorge Foster امينا للصندوق والدكتور و . هـ . هزرد Dr. W. H. Hazerd كتوما لتلك البعثة .

وبعد ان تم تأليف اعضاء تلك البعثة قامت جامعة شيكاغو وتبرعت بدفع المبالغ المطلوبة من الهبة التي نالتها من رجل البر والاحسان جون د . روكفلر Mr John Rockefeller الثري الاميركي الشهير فقد كان في احد الايام جالسا يحادث وليم ر . هربر رئيس جامعة شيكاغو فافضى بهما الحديث الى الفوائد العظمى التي تنجم من التنقيبات في مدن الشرق القديمة المطمورة والنور الوحيد الذي يزيل الظلمات التي تغشي اسفار التوراة بل المرشد الامين في فك معضلات تاريخ العالم القديم وبعد تلك المحاورة انصرف روكفلر عن داره واخذ يفكر في هذا الامر وفي اليوم التالي هزته الاريحية فمنح هبة مقدارها مئة الف دولار تنفق مدة عشر سنوات على اعمال الحفر في اطلال مدن الممالك الشرقية القديمة وبهذه الوسيلة اصبح بمقدور جامعة شيكاغو مال كاف للشروع في عمل يستغرق بضع بعثات اثرية وقد بات ذلك المال بنظارة رئيس الجامعة المستر هربر وعين اخوه الاستاذ ر . ف . هربر مديرا للبعثات في بابل واشور وعهد الى الاستاذ برستد Breasted التنقيب في مصر والقي على عاتق الاستاذ جويت Jewett مهمة الحفر في سورية وفلسطين وقد عقد اعضاء هذه اللجنة اجتماعا في ديوان المستر ستروس وذلك في ٣ كانون الاول ١٨٩٩ وبعد التداول قر رأيهم على ان الدكتور بنكس يشارف تلك البعثة ويكون عميدها .

واقام الرئيس مورتن Morton عشاء لافراد تلك البعثة اطلق عليها اسم

المأدبة البابلية وكانت فريدة في بابها غريبة في صورتها بديعة في شكلها فان بطاقات الدعوة كانت مكتوبة بلغة نبوكد نصر الملك الكلداني العظيم وموضوعة في صحون امام المدعوين والخبز الذي تناولوه كان على هيئة الاجر البابلي وكان لون صحيفة المرطبات الواسعة يشبه لون رمل الصحراء وكانت هناك ابل متخذة من الحلواء قائمة في تلك الصحفة وعليها قطع من المرطبات واغرب من كل ما تقدم الكعك Cake العالي الضخم الذي يمثل برج بابل بشكله وحوله جماعة من الاعراب بازيائهم البدوية وباديهم المعاول وهم يحاولون الحفر وكان ضمن طبقاته العديدة كنوز جميلة لكل من المدعوين . ثم شرع مدير تلك البعثة وهو الدكتور جس بنكس ينبش بمعوله اطراف ذلك الكعك العظيم ويستخرج من انقاضه الركاز اي الكنوز المدفونة والعاديات ويوزعها على الحضور وفي الختام شربوا نخب تلك البعثة واتفق الاستماع على امل الشروع في تلك المهمة واخذ يحيي كل ما يلزم للسفر قبل مغادرته مسقط رأسه وقصد قبل ذلك الى المتحف البريطانية والوفرية ليتروى في الآثار البابلية قبل الشروع في المهمة المقاتل عاتقه وقد نجح في ذلك نجاحا باهرا وبعد ان تم له ما اراد يمم الاستانة لحصول على فرمان (اجازة) تخول له التنقيب في المقبر (اور الكلدان) ووصل القسطنطينية في الخامس عشر من كانون الثاني عام ١٩٠٠

وقد قامت عراقيل كثيرة في وجه القائمين بهذه البعثة حالت دون سيرها فلم تحصل على طائل مع كل المجهود التي بذلها كبار سياسيي اميركة في الاستانة بحجة ان القبائل النازلة في اطراف اور (المقير) ثائرة على السلطة المحلية في العراق وعليه لا يسمح للاجانب ان يرتادوا تلك البقعة او يحفروا في انقاضها لئلا يقع ما لا تحمد عقباه . ولما اخفقت تلك المساعي تحولت الانظار الى التنقيب في تل ابرهيم وهو كوثى درس القديمة غير ان الباب العالي في الاستانة رفض ذلك الطلب ايضا بدعوى ان قائم على تلك الزاوية قبور أئمة وفيه مزار ابرهيم الخليل وهو موضع مقدس عند سكان تلك الناحية واخيرا رأى الدكتور بنكس ان يبلغ المستر ليشمان Mr. Leishman القائم باعمال السفارة الاميركية في دار الخلافة في ذلك الحين ان ينقب في اطلال بسمى (بسمايا) وعلى هذه الصورة استؤنفت

المفاوضات لنيل اجازة الحفر فيها وبعد جهاد دام ثلاث سنوات صدرت الارادة الملكية بمنح اجازة التنقيب للدكتور ادجر بنكس الاميركي في انقاض بسمايا (بسمي) الواقعة في لواء الديوانية وقد اشترطت على المنقب بضعة شروط منها ايداع العاديات المكتشفة في المتحفة العثمانية وكان صدور الاجازة في ٤ رجب ١٣٢١ هـ ١٣ ايلول ١٣١٩ مالية و ٢٦ ايلول ١٩٠٣ م .

غادر الموما اليه الاستانة في الثالث والعشرين من تشرين الاول من تلك السنة قاصدا بيروت وبرفقته حيدر بك واحد الفواس وبعد رحيل دام اكثر من شهر حط رحاله في الفلوجة ومن ثم يمم مدينة السلام فوصلها في الثلاثين من تشرين الثاني في الساعة الثانية زوالية ونزل في احد فنادقها فاستراح فيه بعد وعثاء الطريق وبدأ في نبش اطلال بسمي في اليوم الخامس والعشرين من شهر كانون الاول الموافق صباح عيد الميلاد تبركا بذلك اليوم الميمون في فاتحة عمل استمر بضعة اشهر من سنة ١٩٠٤

٣ — موقع بسمي

ان انقاض بسمي قائمة في سهل واسع بالقرب من مضارب البدير احدى قبائل الفرات النازلة في اراضي عفك وتلك الاطلال واقعة في قلب الصحراء الممتدة في اصقاع بابل الجنوبية وهي تبعد عن شرقي الديوانية ٣٥ الى ٤٠ ميلا (١) .

طاف سياح كثيرون في انحاء بسمي وتفقدوا معالمها واول رحالة — بل نقابة على ما نعهده — وصف انقاضها وصفا دقيقا علميا كان الدكتورين وارد وبترس ثم تأثرهما الدكتور بنكس ونبش فيها والف كتابا نفيسا بحث فيه بحثا وافيا عن ركامها ودون ما اكتشفه فيها من الآثار كما سنصف بعضها في هذا المقال والى المطالع ما كتبه الدكتور وارد في تاريخ ٢٨ ك ٢ عام ١٨٨٥

انبلج الصبح بعد ان هدأت العاصفة فالفت القزالة لعابها وكان اديم الجو صافيا والريح تهب هبوبا عاليسا فانتهزت تلك الفرصة وسرت ونفرا من رجال نوريان فرحان قبل ان افطر وذاك رغبة في مشاهدة اطلال بسمي على قدر ما تسمح به الاحوال وقد هرول رجالنا مسرعين من مضارب الاعراب وبعد ان سرنا

١) تاريخ وآثار بين النهرين لمؤلفه وكيل طمسن ص ٦٠ المطبوع في بغداد عام ١٩١٨

قليلا لمحنـــا طرفا من زاوية السور المحيط بتلك الانقاض ولم يمض على سيرنا خمس دقائق حتى بلغنا الراية التي دونت فيها ملاحظاتي وفتشت فيها تفتيشا دقيقا لعلي اعثر على آثار مهمة عفوا بيد اني لم اجد سوى آجر خال من الكتابة وخزف مدهون بعضه بدهان ازرق وقطع من الحجر الاسود الصلد ولعل هذه الانقاض كانت آثار مدينة عظيمة او معقل كورة مغمورة بالمياه . ثم عبرنا في نهار الثلاثاء مستنقعا واسع الاطراف قبل لنـــا عنه قبيل ان نبلغه ان اسمه خور العيلة Khor-el-'ayla وكان منذ خمس او ست سنوات غائرا بيد ان تلك المياه انصرفت باتجاه اخر بعد ثغر سد الهندية ومنهم من اخبرنا ان نحو ثلاثة ارباع بسمي عاطل بها بالماء .

كانت اسوار بسمي خالية من اثر الجمال وهي تكاد تكون شاذة من غيرها بهندسة البناء وهيئتها ان نظرنا اليها نظرا عاما وهي على ما ترى مربعة الاضلاع ولكن شكلها هذا وزواياها مائلة الى الجهات الاصلية الاربع . وكانت من اكبر التلول القائمة هناك ولم يكن لدي وقت فاطوف حولها كما كنت ارغب وكان في الزاوية الغربية مربع جسيم مرتفع ارتفاعا بـ عن اصل وضعه ويظهر انه متقوم من مربعين كبيرين احدهما واسع جدا ومتصل به طرف من مربع ثالث قائم الى الجنوب وفي المربع الثاني راية بهيئة برج (ايذقورة) وقد اتخذت مقبرة (١) » .

وقد وصف هذه الانقاض ايضا الدكتور بترس قال : « في الساعة الخامسة من اليوم الثاني (بعد وصولنا) ذهبنا الى انقاض بسمي وقضينا فيها بلا كلال حتى الساعة العاشرة . ولم نفارق يداي البندقية لان تلك المنطقة كانت مكمنا لقطاع الطرق وكان المسمى عبدان مضطرب البال قلقا يحتنا على مغادرة تلك البقعة وقد رأى رأيه المكارون وكانوا من قبيلة عفيج (عفك) اذ جزموا ان جماعة من الاعراب القبيحي المنظر اقبلوا من مكان وفي نيتهم نهبنا والايقاع بنا فمنعهم من تنفيذ مأربهم مشاهدة البندقيتين اللتين كانتا بيدي وبيد نورمان .

تصور ان هناك ردما من الطين عديم الهيئة المقبولة والنظام وعيط اخربته ثلاثة

١) انتهى ما نقلناه بحرفه عن كتاب عبر لمؤلفه بترس المجلد الاول من ٣٢٨-٣٢٩ .

ارتفاع الميل او مايزيد وارتفاع أعلى مافيه يبلغ من ثلاثين الى اربعين قدما وفيه قطع من الآجر مبعثرة وهناك طرف من سور معقود بالآجر تبرز تضاريسه هنا وهناك بصورة متقطعة وهذا المنظر لا تنفرد به بسمى بل يكاد يكون شاملا لسفح كبير من انقاض المدن القديمة المبثثة على سطح تلك الديار .

ان الفحص الذي يستغرق خمس ساعات لايسفر طبعا عن اكتشافات عظيمة الاهمية وكل مامكننا العثور عليه كان بقايا بناء واسع من الآجر واللبن (واللبن هو الطابوق المجفف بالشمس) ووجدنا في مجرى قناة بالقرب من سطح الارض قطعا عديدة من الصفائح وبينها صفيحة كاملة غير انها لسوء الطالع لم يكن منقوشا عليها اسم المدينة التي نبحث عنها والظاهر انها كانت قديمة العهد وذات شأن كبير اذ كانت تصلها بلدة نفر ترعة تجري فيها السفن فان نهر النيل كان يجمع بين هاتين المدينتين اذ على طول هذه الترعة تمتد سلسلة روابٍ صغار هي اطلال بلاد قديمة .

وان صح ان موقع بسمى الهم يمثل مدينة اسين Isin فسوف يتيح الحظ لاحد النقابين ان يتبش بمعوله هذه البقعة ويعثر على آثار ذات قيمة ثمينة ويتوقع انها تظهر مدافنها (١) .

وقد كتب الدكتور بنكس عن هذه الاطلال قائلا : طفت حول بسمى والهواجس تتقاذفني لاني لم اكن ادري أكانت هذه الانقاض تضم بقايا آثار من عهد العرب القدماء ام من عصر الفرثيين ام الفرس ام من زمن نبوكد نصر . فهذه التخيلات باتت تنتابني ولم اهتد الى الاجابة عنها حتى لفت نظري قطع من الخزف الملقاة هنا وهناك فعلمت من هيئتها انها قديمة العهد ثم عثرت على مثقار من حجر الصوان وعلى قطعة من اناء جزع Onyx Vase (ضرب من الحجارة الكريمة) وعلى مسافة قليلة وجدت قطعة من الآجر ذات هيئة مسننة Plano-convex فحينئذ علمت بل تحققت ان اطلال بسمى ضمنها آثار قديمة العهد ترتقي الى اوائل حضارة بابل (٢) .

وقد وصف ايضا الدكتور المشار اليه انقاض بسمى فقال ما معناه : كنت

١) نقلا عن كتاب نفر لمؤلفه الدكتور بترس المجلد الثاني من ٢٧١ الى ٢٧٢ .
٢) بسمى او ادب المقودة لمؤلفه الدكتور بنكس ص ١٠٣ الى ١٠٤ .

اطوف حول الردم بضع ساعات كل يوم فاحصا باحثا فالفيت منظر الروابي غير منتظم ولا جلي حتى يخيل الى الناظر اليها انها آخذ بعضها برقاب البعض وتؤلف بصورة غير مستوفية للترتيب ولا محكمة شكلا مربع الاضلاع ويقرب من المستطيل . واما زواياه فمتجهة نحو المخافق .

لقد قمت تلك الاكام ما عدا بعض المنخفضات منهسا القسائمة في ظاهر المدينة فالفيت طولها ١٦٩٠ مترا في عرض ٨٤٠ مترا وبعبارة اخرى يقدر طول اطلال بسمى بميل وعرضها بنصف ميل ومحيطها بثلاثة اميال يشقها من الجنوب الغربي الى الشمال الشرقي عقيق ترعة تشطرها شطرين غير مستويين وهذا العقيق يمثل مسيل بدعة (ترعة) من شطر النيل كانت تجري قاطعة « نفر » و« دريهم » حتى « بسمى » ومن ثم تواصل مجراها وتنساب في بعض مدن صغيرة فتخترقها وفي الاخر تتحد مع شط الحلة .

والكورة المحيطة ببسمى قاحلة اليوم ولا اثر فيها للمياه بيد انها كانت بعد زوال حضارة البابليين مغمورة بالمياه بفضل الترع التي كانت تحمل مياه الفرات الى السهول الشاسعة فتحولها مستنقعات .

ان الاعراب النازلين في تلك الناحية يذهبون الى ان المياه كانت غزيرة في اطراف بسمى في ايام آبائهم ويؤيد قولهم مايشاهده المرء من المستنقعات الواقعة اليوم الى الشمال والشمال الغربي من ذلك القطر وكان يجري نهر بالقرب من بسمى منذ نحو قرن ولكن بدلا من ان يجري في وسط انقاضها القائمة على عقيق الترعة القديمة اخذ ينساب الى الجنوب الغربي متجها نحو « فارقه على بعد اربع ساعات ليقترن بنهر هناك وقد جفت ترع بسمى واصبحت خالية من المياه على اثر انكسار سد الهندية الواقعة على الفرات فوق الحلة (١) .

٤ — معنى كلمة بسمى

كانت بسمى تعرف عند الاقدمين من سكان هذه الديار باسم ادب كما حققت ذلك جماعة من الاثريين والمنقبين وفي مقدمتهم الدكتور ادجر جونكس الاميركي وقد جاءت في تاريخ العرب بعد الاسلام باسم بسمى وباروسما ولا

١) بسمى او ادب للمقدوة ص ١٥١ — ١٥٣ .

يخفى ان هذين الاسمين لمسمى واحد فان باروسما لفظة ارمية النجار واراها مصحفة عن بسمي (بسمايا) المقتضبة من بيت شمايا ومعناها دار السماء وسميت بهذا الاسم لكثرة المعابد والمذابح التي كانت منتشرة في اطرافها غير ان عرب العراق صحفوها فقالوا اولا بسمي ثم بسمايا وهي معروفة الى اليوم بهذا الاسم عند البدو والحضر وقد اطلقوها على مدينتين كما اشرنا الى ذلك في مقالنا السابق .

(لغة العرب) تستبعد كون بسمي وباروسما شيئا واحدا .

• — التنقيب في بسمي

اسفر البحث والتنقيب في اطلال بسمي عن اكتشافات عظيمة ذات منزلة تاريخية سامية ، فقد عثر المنقبون على كنوز اثرية ثمينة في انقاض هذه المدينة المطمورة منذ اجيال عديدة فمشى رومها وخرائبها الدوارس وجدوا جملة صالحة من الآثار وكشفوا عن تمثال كامل من الرخام وتماثيل اخرى مبتورة الاعضاء ومئات من شظايا الاواني الخزفية المحفورة والمرصعة باحجار كريمة ومنزل فيها العاج والذهب والنحاس ووقفوا على بضعة آلاف من صفائح الآجر المسمارية الخط وعثروا ايضا على مدافن وتوابيت وهياكل وقصور ودور ومنازل واسمنة الجنود تشبه الثكنات وسلاح واوان ودمى ورماح وغير ذلك من الآثار والرياش فكل من هذه الاشياء يمثل ويصور امام عيوننا صورة تامة لحياة البابليين وحضارتهم قبل خمسة آلاف سنة على اقل تقدير .

وجدت هذه المدينة المفقودة بعد احتجابها عدة قرون وبعثت من عالم الدثور والنسيان فابصرت نور الشمس من جديد وتمتعت بمنظر ابناء آدم الذين يحاولون هتك اسرارها ليتسنى لهم الوقوف على ما خفي من امرها . ان اكتشاف معالم هذه المدينة المطمورة اعاد مجد السومريين والبابليين الاولين وكشف النقاب عن اقدم حضارة عرفت في ديار العراق منذ مئات من السنين فاسماء ملوكها الاشداء وحكامها العقلاء وسلسلتها المحنكين وقوادها المدربين دونت في سلسلة تواريخها التي لم تزل ناقصة مع كل الجهود التي بذلها المنقبون في الوقوف على ما طمس من ابناء تلك المدينة العريقة في القدم .

٦ — تاريخ مدينة ادب

وقفنا على تاريخ مدينة ادب من آثارها القديمة المطمورة في انقاضهـا منذ قرون عديدة بيد اننا لانستطيع اليوم ان نلم بتاريخها المامًا وافيًا وليس في وسعنا ان نحيط علمًا باخبار ملوكها وامرائها كل الاحاطة لانه لم يتسن للنقابين الاميركيين نبش كل رواياتها . وعليه عزمنا على ان نكون ما تيسر لنا من تاريخها حتى يتيح الحظ لاحد الاثريين استئناف الحفر والتنقيب فحينئذ نستوفي البحث عنها بصورة مستفيضة .

لم تكن بابل دولة عظيمة الشأن في اول عهدها اي قبل اتحاد امارتها بعضها ببعض فقد كانت دويلات مستقلة الواحدة عن الاخرى كل الاستقلال وكان لكل مدينة منها ملك والهة خاصة بها وكان سكان كل قطر من اقطارها يقاتلون قتال المستميتين ويضحون باغلى مايملكون في الذود عن حياض استقلالهم وكانت ادب في ذلك الزمن احدى تلك المدن التي نازلت من ناوأها وثلوث في وجه من هم بالسيطرة عليها واذلالها وقد ارتقت الى اعلى منزلة في الحضارة والعمران في صدر تاريخ بابل القديم .

واذا القينا نظرة على الازمنة المتوغلة في القدم اي قبل نحو عشرة آلاف سنة حينما اخذ البابليون الاولون يشقون اسس مدينة ادب ليستوطنوها نجد « نار مراتو »(١) كان يغمر في ذلك العهد معظم اطراف بلاد بابل ولا يبعد ان هذه المدينة كانت واقعة على ضفة خليج فارس او بالقرب منه . هذا ومعرفتنا لسكانها الاصليين قليلة جدًا اذ ليس في استطاعة احد الاثريين ان يجاهر باسمهم جليًا ولا بما كانت عليه لغتهم ودياناتهم وعنصرهم وجنسهم ولون بشرتهم الى آخر ماهنالك من المسائل الغامضة بل لا يعرف مؤرخ معرفة صادقة القطر الذي نزحوا منه ولا كم من الزمن مكثوا في هذه الربوع . وكل مايمكننا قوله ان آثارهم التي خلفوها تدل دلالة ساطعة على انهم كانوا شعبًا متمدنًا

(١) نار مراتو او نهر مراتو معناه في السومرية والبابلية البحر قار او للبح وكان يعرف عند اليونانيين باسم البحر الاثري وعند العرب ببحر فارس وقد اشتهر في ايامنا باسم خليج فارس وخليج العجم .

وتشهد شهادة جلية على تسنمهم غارب المعارف والعلوم القديمة ولعل الامور التي نجهلها اليوم تحل معضلتها التنقيبات المقبلة .

وقد ظهر من التحريات الدقيقة ان شعبا غريبا اجتاح قاعدة بلادهم وحل محلهم وهذا الشعب الفاتح لم يستتب له الامر زمنا طويلا اذ غلب على امره ودمر كما دمر السكان الاصليون قبله وقد كشفت لنا آثار الانقاض ان كل امة احتلت هذه المدينة وقوضت اركان من سبقها من الغاصبين شيدت لها مساكن على اطلال المباني الاولى فاصبحت هذه البقعة طبقات من المنازل موضونة الواحدة فوق الاخرى حتى ان المنقبين عثروا في تنقيباتهم على طبقات رقيقة رقيقة من الرماد اظهرت لهم ان غرف تلك البيوت كانت من الخشب وان نارا عظيمة التهمتها فلم تبق منها ولم تذر ووقفوا ايضا على مدينة من طين واخرى من صخر الخ وقد حفر الدكتور بنكس النقابة الاميركي بئرا عمقها نحو خمسين قدما في احدى الروابي حتى بلغ ارض الردم على حقيقتها فوجد تحت الهيكل القائم على مسطح معقود بالاجر المسنم بناء قديما جدا ولو تيسر له الامر لحفر تحت ذلك البناء ولوجد مباني اخرى اقدم من المباني التي كشفها ووقف على عروضها فهذا ما تحققه واقر به المؤرخون المدققون عن هذه المدينة قبل بضعة آلاف سنة من تاريخها .

ظهر الشمريون لاول مرة في العراق قبل المسيح بنحو اربعة آلاف سنة ولا نعرف على التحقيق متى حلوا في هذه الربوع لان الآثار التي بين ايدينا لا تهدينا الى بغيتنا بيد ان هذا الشعب كان ارقى الشعوب التي سبقته فاستوطنت بين النهرين وليس لدينا انباء صحيحة عن الديار التي غادروها قبل ان القوا عصا ترحالهم في هذا القطر وكم من الاحقاب قضوا في التنقل من بلاد الى بلاد اخرى تنقل امة متحضرة وقد ذهب بعض علماء الآثار الى انهم اقبلوا من آسية الوسطى وكانوا اولمن اتخذ الكتابة لمراسلاته ولاغراضه السياسية واولمن شوى الاجر واتخذه مادة للبناء وقد حصنوا مدينة ادب بابراج لما احتلوها وسوروها بسور عظيم متين من الاجر المسنم وبنوا فيها هيكلا وزينوه بتماثيل ملوكهم .

كان الشمريون منتشرين في كل صقع من اصقاع جنوبي العراق وكانت بسعى احدى حواضرهم فبقايا آثار مدنيتهم وجدت في انقاض مدن كبيرة حتى

ان كلمة شمر اطلقت على الطرف الجنوبي من بابل فالعروض البديعة والتحف النفيسة التي عثر عليها النقابون في تلو واور كانت من آثارهم الخالدة ففي بسمى عاشوا قرونا عديدة وادار وا سكان سياستها بحنكة ودراية وطوت جامة من ملوكهم وامرائهم بساط ايامهم فيها واودعت جثتهم مقابر الاسر المالكة حتى ظهر سرجون الاول (٢٧٥٠ ق . م) ذلك الفاتح العظيم فدوخ ديار شمر واحتل ادب . والامر الذي حير علماء التاريخ القديم ولم يقفوا له على اثر جلي هو جهلهم عدد الملوك الذين تربعوا على دست امارة هذه المدينة في خلال تلك القرون المديدة بيد ان الآثار المكشوفة دلتهم على ان خمسة عشر ملكا منهم اقاموا في ادب مباني من الآجر مطبوع عليها اسماؤهم اما باقي ملوكها فلم يهتد احد حتى اليوم الى ما قاموا به من الاعمال وما شيدوه من الهياكل والقصور . وقد عثر النقبون في بسمى على تمثال لاحد ملوكها واسمه لوجل داودو Lugal-da-u-du - (١) وعلى ملك آخر اسمه بركي Bar-ki كان حاكما على مدينة كيش ايضا ويظن ان هذا الملك قدم الى هيكل اسار Ysar نذورا وبنى اوان منقوش عليها اسمه وقد تحقق الاثريون ان في هذا الهيكل كان يعبد إلهان احدهما دنجرماك Dingi-Mak اي الاله الاعظم واسم الآخر نين خرسج Nin Kharsag وسناه الهة الجبل وكان يتخذ في ذلك الهيكل للعبادة اوان بديعة جدا منحوتة من المجر .

كان الشمريون كما اشرنا قبيل هذا قد اجتاحوا مدينة ادب وطردوا سكانها

١) ذهب جماعة من المستشرقين والاثريين وفي طليعتهم الاستاذ فردريك دلج الى ان ايجبي كان صيرفيا يهوديا في بابل وقد استدلوا على ذلك من اسمه المصحف عن يعقوب غير اني اذهب خلاف ما ذهبوا اليه واقول ان اليهود اقتبسوا جل مدنيتهم وحضارتهم وكثيرا من اساطيرهم عن البابليين فان كلمة داودو وهي نفس لفظة داود الوارد ذكرها في التوراة التي تفيد معنى المحبوب وقد نشر الاستاذ ا . ت . كلي Pro. A. T. Clay بضع مئات من محتويات صفائح الآجر وقد استدل منها على ان اسرة مراشو Murashu تعاطت الصرافة والتجارة في نفر في القرن الخامس للميلاد (راجع كتاب حضارة بابل واشور لمؤلفه الاستاذ موريس جسترو ص ٤٧ وراجع ايضا كتاب التقاليد السيرية والبابلية وكتاب مشاهد الايمان والممارسة الدينية في بابل واشور للمؤلف المذكور) فتتحقق صدق مقالنا في ان اليهود اقتبسوا معظم معارفهم الدينية والدنيوية عن البابليين والاشوريين .

الاولين ثم هاجمهم بعد ذلك باجيال شعب غريب واستولى على المدينة فاضطهم منها صاغرين .

وهذا الشعب المهاجم اقبل من بلاد نائية مجهولة وربما كان قد وافى من اواسط بلاد العرب فباغتهم على حين غرة وانتزع المدينة من سلطتهم .

نزل السامیون القطر العراقي منذ زمن بعيد واحتلوا الطرف الشمالي منه وقد اشتهرت تلك الربوع بديار (اكد) وكان اول ملوكهم العظام سرجون الاول الذي استولى على مدينة اور بعد حروب عنيفة سالت على اثرها الدماء كالانهار لمناعة حصونها فان جيوشه الجرارة التي بايديها القنابل دكت اسوار المدينة واحتلتها وباتت تابعة للملك القاهر وقد امر جنوده بنهب هياكلها ونزع تماثيل ملوكها من مواطنها ولا يعرف معرفة جلية ما حل بالسكان ولا بد ان الكثيرين منهم قتلوا واسروا ومثل بقوادهم وزعمائهم شر تمثيل والبقية الناجية من بطشهم وفتكهم التربع خضعت صاغرة للعدو ومنهم من لاذوا بالفرار وانضموا الى اعداء الفاتحين وقد سمح لجماعات من سكان اور بالاقامة في محلات معينة بعد ان شطرت المدينة شطرين فكان يقطن في الجهة الواحدة السمريون وفي الجهة الاخرى السامیون وكانت احدى محلات السامیين واقعة بالقرب من باب المدينة الى الطرف الغربي منها حيث كانت تقيم حاشية الملك وكبار رؤسائه وممثليه واعيانه والمقربين منه وقد عثر النقابون على اسمي حاكمين من حكام سرجون يمثلان امر ملكهم ونواهيه .

ان الحكم ولو انتزع حينا من يد السمريين على اثر انهزامهم الزائع فان حضارتهم استمرت زاهية زاهرة مدة خضوعهم للفاتحين الاشداء ولم يطل زمن استيلاء السامیين على هذه المدينة اذ انتهى بموت نرام سين بن سرجون الاول وقد عثر الدكتور بنكس على شقفة من الذهب مكتوب فيها اخباره ومعاركه (٢٧٠٠ ق . م) .

طرد السمريون وقبضوا على صولجان الحكم بعد ان دحر الاكديون وتشتت شملهم من اور غير ان هذه المدينة اصبحت بعد ذلك تابعة لملوك اور ومنهم اور انجورو ودنجي وجيل سين (٢٤٥٠ ق . م) وقد وسع هؤلاء الملوك الهيكل والمعابد

بناء سور المدينة وشقوا الترع وحفروا الآبار وبنوا دورا لمشايخهم فبهت ادب من كبوتها ونالت استقلالها ونصبت عليها ملكا باسم « اي شي اول بأودو » E-she-ul-pu-u-du وقد وجد اسم هذا الملك محفورا على صفائح من الحجر والنحاس غير انه لم يعمر ويظهر من التحريات انه ملك قبل احتلال ملوك اور هذه المدينة العظيمة سيد قطرها والراقية في عصرها. ومن الملوك الذين اعادوا بناء ادب ورمموا هياكلها وزينوا معابدها حمرب (حوربي) ملك بابل (٢٠٠٠ ق.م) اذ وجد المنقبون في انقاض بسمى صفائح تنبىء عن حكمه فيها وعثروا ايضا على آجر مكتوب فيه اسم كوريجلزو Kurygalzu (١٤٠٠ ق. م) وهو اسد ملوك بابل ويظهر انه آخر من رمم هذه المدينة القديمة وشيد المباني فيها .

احتل مدينة ادب بعد ذلك بزمن قوم من سلالة ارمية واستعملوا كتابتهم وسطروها على الآجر الذي اتخذوه في معاراتهم التي اقاموها فوق المباني القديمة واتخذوا كثيرا من الفروض المعثرة في اطراف المدينة وبنوا بها « دورا جديدة » وتدل الآثار المكشوفة على ان ادب اصبحت ردما من الانقاض واندثرت معالمها حتى عمي اسمها من اذهان البابليين منذ ثلاث من السنين اي قبل الميلاد المسيحي وقبل نفي اليهود وتشتتهم في اطراف بلاد بابل وقبل ان اعاد ملوك اشور من سلالة سرجون بناء مدينة نفر وغيرها من المدن القديمة المندثرة فمن هنا يستدل باجل بيان على ان ادب تعد من اقدم مدن العمور فقد اتخذ ملوك فارس وماذي والبرتيون والسلسليون والروم والعرب العراق موطنا لهم لكنهم لم يعمروا هذه المدينة ولم تطأها أقدامهم فلا اثر لهؤلاء الاقوام هناك فهي خالية من توابيتهم المدهونة بدهان خزفي تلك التوابيت التي كانوا يستعملونها في دفن موتاهم بل لا اثر لنقودهم النحاسية المنحورة لطول عهدها لتنبىء عن وجودهم في تلك البقعة من الارض غير ان آثارهم وبقايا مدينتهم اكتشفت في مدن مجاورة لها قد استولوا واقاموا فيها بعد ان رمموها او اعادوا بناءها بصورة تخالف طراز البناء القديم .

ان العرب الذين عاصروا خلفاء بغداد هجروا موضع ادب ولم يجرؤ احدهم على التوغل في تلك الصحراء القاحلة لانهم كانوا يعتقدون ان الجان والعفاريت والغولة احتلت اخربتها ولهذا نراهم قد ابتعدوا عنها ابتعاد السليم عن الاجرم

ولم يخطر ببالهم ان في قلبها كنوزا لا نظير لها في عالم العلم والتاريخ .

لقد حيت ايب من صحيفة الوجود قبل بضعة آلاف سنة واصبحت قفرا جردا. فتحولت عنها عمارة الانهار وسدت الترع فهلك الزرع والضرع وتعطلت فيها اسباب الرخاء والسعادة ولم يسمع في اديمها ومنازلها صوت. فلات الطرب فتخلى عنها اهلها وهجرها عمرها وباتت تلك الغادة الحسناء كارملة جالسة على مفارق الطرق تندب حظها وتستعطف المارين بها لاعادة مجدها واحياء معالم الحضارة في ربوعها ولكن كل ذلك كان عبثا فقد قضى الزمان المحزون بأن تستأصل شأفة المدنية منها فتصبح مأوى للهوام وبنات اوى وعبثما اليوم تتعق في آكامها وتمسي مكمنا للسفاكين الفارين من وجه العدل ومرصدا لقطاع الطرق الذين يعيثون في الارض فسادا

هذا ولم يفم لها احد المؤرخين ذكرا حتى وقعت على ديار العراق بعثة جامعة شيكاغو وقامت باعمال الحفر والتنقيب فكشفت النقاب عما حوته من الآثار النفيسة والتحف المستطرفة وابانت مشارق التاريخ بعلو منزلتها في الحضارة منذ بزوغ فجر التاريخ في سماء المدنية والعمران .

بغداد رزوق عيسى

وزن الفعل الثلاثي بتداخل اللغتين

قال في مختار الصحاح « فضل بالكسر يفضل بالضم وهو شاذ لا نظير له » قلت ان « فضل يفضل » بكسر العين في الماضي وضمها في المضارع هو الوزن السابع المجرد الثلاثي الحاصل من تداخل لغتين هما اللغة الرابعة والخامسة. اما قوله « لا نظير له » فيكذبه هو نفسه فقد قال في مادة « نعم » ما نصه « وفيه لغة ثالثة مركبة منهما وهي نعم ينعم مثل فضل يفضل » فالشاهد على وهمه قوله الذي في كتابه. قلت ذلك فضلا من انه نقل في كتابه « حضر يحضر » و« نكل ينكل » على ذلك الوزن . ومن العلماء من جعل لـ « مت تموت » و« دمت تدوم » اشتراكا في ذلك الوزن .

مصطفى جواد